ضحك الجاحظ (١)

—«»—

أدرج بكم من أفق من آفاق الجاحظ لتسع فيه أفياء الحقيقة الى أفق ينبسط فيه سلطان الجمال ، ان قطع عضو من أعضاء الحيوان ، او إلقاء السم على هذا الحيوان او استقصاء صفاته اودفنه في النبات اوذوقه او بعج بطنه او جمع أضداده في إناء ، ان هذا كله لاتلتمس فيه الا الحقيقة ، وسواء أكانت هذه الحقيقة بنت الحواس أم كانت بنت العقل انها جافة وايٌ طراوة في تجريب على ضب او على حية او على ظليم او على خنفساء او على عقرب او على جُرَذ او على نملة ، ولكن عبقرية البشر لايتعاظمها تصوير الحقائق في صورة يتغير فيها الجفاف الى الطراوة واليبس الى الغضاضة وهذا التصوير انما هو من عمل الفن ، فاذا أردنا ان ندرك قدرة الجاحظ عليه لزمنا ان نعجل الى الإحاطة بناحية من نواحيه لنشيٌ لنا لذة تروّض قوانا العقلية فيخرج العقل من هذه الرياضة أقوى سلطاناً وأمرن طبيعة وأغنى مادة .

فها انا أخرج بكم من باب علم الجاحظ الى باب فنه . ولايخطرن على بال احد ان العلم والفن ضدان فالحقيقة أخت الجمال واذا أردنا ان نعلم مقدار اتصالها بالجمال فلنسمع ماقاله واضع علم الكيمياء الحديث ، قال (Lavoisier) : « ولما كانت الالفاظ هي التي تحفظ الأفكار وتنقلها نشأ عن ذلك اننا لا نستطيع تجويد اللغة الاّ اذا جوّدنا العلم ، ولا نستطيع تجويد العلم الا اذا جوّدنا اللغة ، ومهما كانت الامور أكيدة ثابتة ومهما كانت الأفكار التي تولدها هذه الأمور صحيحة اننا اذا لم يتهيأ لنا بيان صحيح يعرب عن هذه الأفكار لانتقل الاّ انفعالات خاطئة .

(١) سلسلة محاضرات الاستاذ السيد شفيق جبري احد اعضاء المجمع العلمي العربي التي شرع في المحاضرة بها في كلية الآداب في دمشق سنة ١٩٣١ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

هذا مقدار عطف عالم من أبلّ العلماء على الفن واليكم رأي اديب يفصح عن عطفه على العلم فقد تمنى (Maurice Donnay) في خطاب خطبه في الأكاديمية ان ينشأ الادب والعلم معاً كما ينشأ الشقيقان . —

فالعلم والفن صنوان ، فلنعجل الى البحث عن فن الجاحظ ، اول جهة من جهات هذا الفن تهكم الجاحظ وقبل ان أتعرض للكلام على تهكمه لا بأس بامضاء القول في اضاحيك الجاحظ .

للجاحظ ولع شديد بالضحك والإضحاك فكأنما لا ينظر الى الحياة الاّ من وجهها المشرق واي شيء أدلّ على فرط اهتمامه بالضحك من قراءة هذه السطور التي تمثل لنا مقدار تفننه في بيان وجوه استحسانه وتأثيره في الطباع . قال ابو عثمان[1] :

« ولو كان الضحك قبيحاً من الضاحك وقبيحاً من المضحك لما قيل للزهرة والبحيرة والحلمي والقصر المنيّ كأنه يضحك ضحكاً وقد قال الله جلّ ذكره : وانه هو أضحك وأبكى وانه هو أمات وأحيى . فوضع الضحك بحذاء الحياة ، ووضع البكاء بحذاء الموت ، وانه لا يضيف الله الى نفسه القبيح ولا يمُنّ على خلقه بالنقص وكيف لا يكون موقعه من سرور النفس عظيماً ومن مصلحة الطباع كبيراً وهو شيء في اصل الطباع وفي اساس التركيب لان الضحك اول خير يظهر من الصبي وقد تطيب نفسه ، وعليه ينبت شحمه ويكثر دمه الذي هو علة سروره ومادة قوته ولفضل خصال الضحك عند العرب تسمي اولادها بالضحاك وبسام وبطلق وبطليق ، وقد ضحك النبي صلى الله عليه وسلم وفرح وضحك الصالحون وفرحوا واذا مدحوا قالوا : هو ضحوك السن ، وبسام العشيات وهش الى الضيف ، وذو أريحية واهتزاز ، واذا ذموا قالوا : هو عبوس وهو كالح وهو قطوب وهو شتيم المحيا وهو مكفهر ابداً وهو كريه ومقبض الوجه وحامض الوجه ، كأنما وجهه بالخل منضوح وللضحك موضع وله مقدار وللمزح موضع وله مقدار متى جاز هما احد وقصر عنهما احد صار الفاضل خطلاً والتقصير نقصاً ، فالناس لم يعيبوا الضحك الاّ بقدر ولم يعيبوا المزح الاّ بقدر ومتى أريد بالمزح النفع ، وبالضحك الشيء الذي جعل له الضحك ، صار المزح جداً والضحك وقاراً » .

(١) كتاب البخلاء (مطبعة الجمهور ص ٦) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

لم تفلت الجاحظ حجة من الحجج في دفاعه عن الضحك فهو يستعين بكل شيء في هذا الدفاع ، يستعين بالأدب وبالقرآن وبالطب وبالنبي وبالصالحين ، وهذه طريقته في تقرير معنى يستأنس به ؛ وما هذا المعنى في مقامنا الا الضحك فالجاحظ مولع بالضحك ولكنه لا يريد ان ينفرد به وانما يحاول ان يشارك فيه قرّاء كتبه فكأنما يحاول ان يحمل هؤلاء القراء على النظر الى الحياة من الوجه الذي ينظر اليه منها فهو يحرص الحرص كله على إضحاك القارئ خوفاً من ملالته وسآمته فيصرف كل همه الى إدخال السرور على قلبه والنشاط على ذهنه بما يهتدي اليه من النوادر والغرائب ولقد وضّح حرصه هذا في مواطن كثيرة من كتبه وخاصة كتاب الحيوان ، وما خصصت هذا الكتاب الا لجعله فيه للعلم أو في نصيب فقبل ان يتفرغ للبحث عن الضب والغول والجن والهدهد والتمساح والظبي والأرانب والظربان وغير ذلك يستوقف القارئ في مقدمة كلامه ويعاهده على إضحاكه بشيء من النوادر أو الأخبار او الاشعار خوفاً من إضجاره فمن المواطن التي استوقف فيها القارئ قبل ان يندفع في مباحث جافة وعالمه فيها بالإضحاك موطن يقول فيه [1] :

« وليس من هذه الأبواب باب الا وقد يدخله نتف من ابواب أخر على قدر ما يتعلق به من الأسباب ويعرض فيها من التضمير ولعلك ان تكون بها أشد انتفاعاً ، وعلى اني ربما وشحت ، فصلت فيه بين الجزء والجزء بنوادر كلام وطرف أخبار وغرر اشعار مع طُرَف مضاحك ، ولولا الذي نحاول من استعطافك على استماع انتفاعكم لقد كنا سجّمنا وسجّعنا شأن كتابنا » .

فأنتم ترون في هذا الكلام مقدار اعتنائه بالاشارة الى مضاحكه والتنبيه عليها .

ولقد فصّل مذهبه أوضح تفصيل في قوله [2] :

— باب ذكر الحمام —

« وان كنا قد أملينا لك بالجد والاحتجاجات الصحيحة والممزوجة لتكثر الخواطر وتشحذ العقول فاستنشطتك ببعض البطالات وبذكر العلل الظريفة والاحتجاجات الغريبة

(١) كتاب الحيوان الجزء السادس ص ٦ .

(٢) » » » الثالث ص ٢ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فرب شعر يبلغ بفرط غباوة صاحبه مالا يبلغه أحر النوادر وأجود المعاني وانا استظرف امرين استظرافاً شديداً : احدهما استماع حديث الاعراب والأمر الآخر احتجاج متنازعين في الكلام وهما لا يحسنان منه شيئاً فانهما يثيران من غريب الطيب ما يضحك كل ثكلان وان تشدد وكل غضبان وان أحرقه لهيب الغضب ولو ان ذلك لا يحل لكان في باب اللهو والضحك والسرور والبطالة والتشاغل مايجوز كل فن وسنذكر من هذا الشكل عللاً ونورد عليك من احتجاجات الاغبياء حججاً فان كنت ممن يستعمل الملالة وتعجل اليه السآمة كان هذا الباب تنشيطاً لقلبك وجماماً لقوتك ولنبتدئ النظر في باب الحمام فقد ذهب الكلال وحدث النشاط وان كنت صاحب علم وجد وكنت ممرتاً موقحاً وكنت الف تفكير وتنقير ودراسة كتب وحلف تبيين وكان ذلك عادة لك لم يضرك مكانه من الكتاب وتخطيه الى ما هو أولى بك وعلى اني عزمت والله الموفق اني أوشح هذا الكتاب وأفصل أبوابه بنوادر من ضروب الشعر وضروب الأحاديث ليخرج قاريء هذا الكتاب من باب الى باب ومن شكل الى شكل فاني رأيت الأسماع تمل الأصوات المطربة والأغاني الحسنة والأوتار الفصيحة اذا طال ذلك عليها وماذلك الا في طريق الراحة التي اذا طالت أورثت النفلة واذا كانت الأوائل قد سارت في صغار الكتب هذه السيرة كان هذا التدبير لما طال وكثر أصلح وما غايتنا من ذلك كله الا ان تستفيدوا » .

وللجاحظ مقامات كثيرة أشار فيها الى ولعه بالإضحاك اكتفي بالقدر اليسير الذي ذكرته تفادياً من التطويل . ولقد كان في تكريره هذه الاشارة دليل واضح على شغل ذهنه بالاضحاك ، واذا علمنا ان الجاحظ عاش في عصر نقلت فيه كتب الهند وترجمت حكم اليونانيين وحولت آداب الفرس ، اذا علمنا ان عصر الجاحظ كان عصر حساب وطب ومنطق وهندسة وفلسفة وفلاحة وتجارة وغير ذلك من الأبواب التي قد تتعب الأذهان وتجهد العقول ، اذا علمنا هذا كله لم نعجب من ميل الجاحظ الى الاستنشاط ببعض البطالات وبذكر العلل الغريبة والاحتجاجات الغريبة .

ولكن العلم وحده وما طبع به من طابع جاف لم يكن السبب الاكبر الذي من اجله لجأ الجاحظ الى الاضحاك حرصاً على نشاط القاريء ، افلم يضع كتاب البخلاء الذي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

قال فيه [١] :

« ولك في هذا الكتاب ثلاثة اشياء : تبيّن حجة طريفة ، او تعرف حيلة لطيفة او استفادة نادرة عجيبة ، وانت في ضحك منه اذا شئت وفي لهو اذا ملت الجد » .

ولقد ذهب بعضهم الى ان ما تضمنه هذا الكتاب من احتجاج الاشحاء ونوادر أحاديث البخلاء لا صحة له وانما الجاحظ نوخى في هذا كله مجرد الضحك والاضحاك على اني لا أستغرب شيئاً مما ورد في كتاب البخلاء . فقد تكون نوادره صحيحة ومن عرف اخبار البخلاء وجالسهم وخالطهم لا يستبعد كتاب الجاحظ في احتجاجهم ونوادرهم فضلاً عن ان الجاحظ لم يخترع الاسماء اختراعاً فقد قال في مقدمة البخلاء [٢] :

« وقد كتبنا لك أحاديث كثيرة مضافة الى أربابها واحاديث كثيرة غير مضافة الى اربابها ، اما باخوف منهم واما بالاكرام لهم » .

وكيف كان الأمر فلا يخرج كتاب البخلاء عن الإضحاك كما لم يخرج طبع الجاحظ عن الضحك والإضحاك وربما ذهب في هذا الباب مذهباً ابعد فعمد الى الادب المجرّد وسمى الاشياء باسمائها دون شيء من التورية وسيأتي الكلام على هذا المذهب .

يستخرج من كل ما تقدّم ان الجاحظ مولع بالضحك والإضحاك وقد اجتمع له في هذا المعنى مالا يسهل اجتماعه لغيره : خلقة مشوّهة تعين على المزح والظرف وربما كانت مصدر الضحك والاضحاك وطبع على الهزل فالجاحظ مطبوع على الهزل لا تفوته النكتة ولو في ديوان الخلفاء وانتم تعلمون ما صنعه بابن العيناء لما تقلد خلافة ابراهيم بن عباس الصولي على ديوان الرسائل ، مولع بالنادرة ولوجلبت له هذه النادرة اشد الأذى ولم يفتكم ما فعله محفوظ النقاش فقد اكل اللبأ كله ولم يعبأ بفالجه طمعاً في الضحك والنشاط والسرور ومن فرط اهتمامه بالظرافة يخالط اهل الهزل ويروي من النوادر ولو على نفسه من هذا القبيل قوله :

فأما الذي اصابني انا من الذبان فاني خرجت امشي من عند ابن المبارك أريد دير

---

(١) كتاب الحيوان الجزء الثالث ص ٥ .

(٢) » » » » ص ٨ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الربيع ولم أقدر على دابة فمررت في عشب ونبات ملتف كثير الذبان ، فسقط ذباب من ذلك الذبان على أنني فطردته ، فلم اقدر ، فتحول الى عيني فزدت في تحريك يدي ، فتنحى عني بقدر شدة حركتي وذبي عن عيني ، ولذبان الكلأ والغياض والرياض وقع ليس لغيرها ثم عاد اليّ فعدت عليه ، ثم عاد فعدت باشد من ذلك فلما عاد استعملت كمي فذببت به عن وجهي ثم عاد وانا في ذلك أحث السير اؤمل بسرعة انقطاعه عني فلما عاد نزعت طيلساني من عنقي فذببت به بدل كمي فلما عاود ولم اجد له حيلة استعملت العَدْو ، فعدوت منه شوطاً لم اتكلف مثله مذ كنت صبياً فتلقاني الأندلسي فقال لي : مالك يا اباعثمان ، هل من حادثة ؟ قلت : نعم ، أريد ان اخرج من موضع للذبان عليّ فيه سلطان فضحك حتى جلس وانقطع عني وماصدقت بانقطاعه عني حتى تباعد جداً[1] » .

كلف الجاحظ بالإضحاك امر بيّن وقد بسط مذهبه هذا في اكثر كلامه وليست في حاجة الى ذكر نادرة من نوادره في اثناء كلام له على بعض الحيوان او على الفلسفة او على الدين فان هذه النوادر مبعثرة في كتبه والحقيقة ان الذهن قد تتعبه امور العلم فيحتاج الى التنشيط فبين الجاحظ يمضي القول في العقرب وفي مقدار الانتفاع برمادها وفي طلبها الانسان ونحوه وفي استخراجها من بيوتها اذ تعنّ على باله نادرة سمعها من ابي عبيدة فيقول[2]

« قال ابو عبيدة : لسعت اعرابياً عقرب بالبصرة فخيف عليه واشتد جزعه ، فقال بعض الناس : ليس شيء خيراً له من ان تغسل له خُصية زنجي عُرَق ، وكانت ليلة عميقة ، فلما سقوه فطب فقيل : طعم ماذا تجد ، قال : طعم فِرْية جديدة » .

أو يخبره محمد وعلي ابنا بشير بهذا الخبر فيرويه فيقول[3] :

« ان ظئراً لسليمان بن دباس لسعتها عقرب فملأت الدنيا صراخاً ، فقال سليمان : اطلبوا لها هذه العقرب فان دواءها ان تلسعها لسعة أخرى في ذلك المكان ، فقالت العجوز : قد برئت وقد سكن وجعي ، لاحاجة لي في هذا العلاج ، قال : فأتوه بعقرب لا والله ماندري أهي تلك ام غيرها ، فأمر بها فأمسكت ، فقالت : نشدتك بالله وباللين فأرسلها

(١) كتاب الحيوان الجزء الثالث ص ١٠٧ .
(٢) » » » الخامس ص ١١١ .
(٣) » » » » »

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
- www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

عليها ، فلسعتها ، فغشي عليها ومرضت وتساقط شعر رأسها ، فقيل لسليمان في ذلك فقال : يا مجانين لا والله ان ردّ عليها روحها الاّ اللسعة الثانية ولولا هي لقد كانت ماتت » .

ولا شك في أن أمثال هذه النوادر تخفف من مؤنة البحث والتنقير والتعمق والتدقيق ، واذا جاز لنا ان نؤاخذ الجاحظ بشيء في هذا الباب فانما نؤاخذه في بعض الاحايين بفرط ولعه بالإضحاك فقد يخرجه غلوه في هذا المعنى عن المقدار فيرسل مثلاً في كلامه على بعض الحيوان أحاديث ونوادر من الشعر قد لا تتعلق بهذا الحيوان ، فكأنما الجاحظ يريد ان يضحك القارئ ويسره كيف كان الامر ، فهو يتعمد هذا الإضحاك أحياناً وهنا موطن الكلفة وموقع الإفراط فاذا تعمدنا الإضحاك فقليلاً ما نضحك والنادرة ان لم تكن بنت الطبع كانت فاترة .

وهذا المذهب الذي يلجأ اليه لبس فيه شيء من قوارص الكلام وربما أوحاه اليه عصره وطبعه وقد قلّد فيه الاوائل وسمعتم قوله في هذا المعنى : واذا كانت الاوائل قد سارت في صغار الكتب هذه السيرة ... ولكننا لا ندري من هم الاوائل ، أهم العرب أنفسهم ؟ ام هم اليونانيون ام الفرس ام اهل الهند ؟ وفي كل حال لم يتوخ الجاحظ في إضحاك القارئ الاّ التنشيط والاستجمام وسنتعرض في الاسبوع الآتي للمذهب المبني على القوارص وهو التهكم .

دمشق : في ٢٨ تشرين الثاني سنة ١٩٣١

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net